

## مقياس: مصادر فلسفية 2.

المحاضرة الثانية: هيوم، رسالة في الطبيعة البشرية. (الجزء الثاني: في الأهواء)  
أفكار كتاب عن الأهواء ومكوناته

### 1. الباب الأول: الزهو والضعفة:

يميز هيوم بين الفكرة والانطباع وذلك على أساس درجة الحيوية والوضوح (الفكرة ما هي إلا الانطباع بعد أن تخف حيويته)، ويقسم الانطباعات إلى انطباعات أصلية وانطباعات ثانوية، حيث تنتج الأولى عن أسباب جسدية خارج العقل من الغرائز أو من انعكاس الموضوعات الخارجية عن الحواس، بينما تنتج الثانية الثانوية أو التأملية عن الانطباعات الأصلية إما مباشرة أو بتوسط أفكارها، (ويستبعد هيوم الكلام عن الانطباعات الأولى رغم أسبقيتها حيث أن الانطباعات تسبق الأفكار متعذرا بأن البحث فيها يخرجنا عن الموضوع) وتنتمي الأهواء إلى الانطباعات التأملية، وتنقسم إلى مباشرة، وغير مباشرة، بالنظر إلى مصدرها حيث تصدر الأولى عن الانطباعات الأصلية وهو ما يخلف أهواء الفرح والغمى والخوف والرجاء، بينما تصدر الثانية عن الانطباعات الأصلية مع توسط أفكارها مثل هوى الزهو الذي ينتج عن انطباع جمال البيت على حواسي مع توسط فكرة امتلاكي له<sup>1</sup>.

ويحد هيوم المشاعر بأسبابها وتأثيراتها، وينقسم السبب إلى الموضوع نفسه، ونوعية الموضوع والهدف، فمثلا سبب الشغف هو ما يستدعي الشغف، فالكبرياء يكون بسبب منزل المرء الجميل، فيكون الموضوع هو منزل المرء، ونوعية الموضوع جمال المنزل، والهدف هو ما يوجهه الشغف فالكبرياء والتواضع موجهان نحو الذات. وكل من السبب والموضوع لهما أساس في الطبيعة البشرية. يتم تحديد موضوع هذه المشاعر من خلال الدستور الأساسي لعلم النفس البشري (يستخدم هيوم المصطلح «أصلي»)، في حين يتم تحديد أسبابها من خلال مجموعة أكثر عمومية من آليات نفسية قابلة للتكيف («طبيعية» ولكنها ليست أصلية)<sup>2</sup>.

ومن التدقيق في الهوى والموضوع نجد أن كل منهما يحوز على خاصيتين، فللهوى خاصيتين: "1 - موضوعها الذي هو النفس، 2 - إحساسها الذي إما أن يكون لاذا أو اليما... — أما السبب — "الخاصتين المفترضتين لأسباب وهما: 1 - علاقتهما بالنفس، 2 - ميلهما لإنتاج ألم أو لذة فضلا عن الهوى"<sup>3</sup>

وعلى العموم فقد حاول هيوم أن يجيب - كما يرى وائل علي سعيد الذي وضع وحقق الكتاب أو الطبعة: "ما أنواع الهوى؟ مما يتكون الهوى؟ ما علاقة الهوى بالانطباع والفكرة؟ كيف يثور الهوى؟ كيف ينتشر الهوى؟ ما القوانين التي تتحكم به؟ ما هي أسبابه وموضوعاته؟ ومما تتكون هذه الأسباب بدورها"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> دافيد هيوم، رسالة في الطبيعة الإنسانية (ج2 في الأهواء)، المصدر السابق، ص33.

<sup>2</sup> ويكيبيديا، تاريخ النشر: بدت، تاريخ التنزيل: 2024/02/25، <https://ar.wikipedia.org/wiki>

<sup>3</sup> ديفيد هيوم، رسالة في الطبيعة الإنسانية (ج2 في الأهواء)، المصدر السابق، ص 67.

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص ص 33، 34.

وفي الفصول الثلاثة التالية، يقوم هيوم بفحص ثلاثة أسباب للكبرياء والتواضع: صفات عقل المرء، وصفات جسده، والأشياء الخارجية. أولاً، صفات العقل: جملة الفضائل والرذائل الخاصة بنا. أما صفات الجسد: الجمال الجسدي والتشوه. النقطة الرئيسية هنا هيوم هي أن جمال أو تشوه بنية شيء ما ليس أكثر من قدرته على إنتاج المتعة أو الألم فينا. أخيراً، وأما صفات الأشياء الخارجية المتعلقة بنا. على الرغم من أن العلاقة الطبيعية للتشابه لها تأثير ضئيل، كما يشرح، فإن الأشياء الخارجية لا تسبب الكبرياء أو التواضع بدون علاقة ما بالتواصل أو السببية - وهي حقيقة يأخذها لتأكيد روايته الشاملة.

يخصص هيوم قسمًا كاملاً لـ «الملكية والثروات». تستوعب روايته الملكية بسهولة: يعرفها على أنها استخدام خاص يتوافق مع قوانين العدالة، ويجادل بأن (سواء كانت العدالة فضيلة طبيعية أو مصنعة) تربط عقولنا بشكل طبيعي بين المالكين وممتلكاتهم، ويلاحظ أن كل الأشياء «مفيدة، جميلة أو من المستغرب» استدعاء الفخر في صاحبها. لكن من الأصعب استيعاب الثروات: أي مجرد القدرة على اكتساب وسائل الراحة في الحياة. بالنسبة لتفسير هيوم السابق للسببية، فقد ألغى التمييز بين القوة وممارسة القوة، وكذلك فكرة القوة غير الممارسة - وكيف يمكنني أن أفخر بمجرد العملات المعدنية والورق بدون هذه الفكرة؟ يجد هيوم طريقتين لشيء مثل القوة غير المتمرسه للتأثير على عواطفنا: أولاً، تنبؤات السلوك البشري (غائبة «دوافع قوية») مليئة بعدم اليقين، ويمكن أن نتلقى متعة أو قلقاً استباقياً من ممارسة السلطة المحتملة أو الممكنة فقط (مؤقتاً) التفكير من سلوكنا السابق لتخمين ما يمكننا فعله؛ ثانياً، يقدم «الإحساس الزائف بالحرية» جميع مسارات العمل الممكنة قدر الإمكان تماماً بالنسبة لنا، مما يمنحنا متعة استباقية لا علاقة لها بأي منطق من التجربة. يختتم هيوم حديثه بالإشارة إلى الفخر الذي نكتسبه في السلطة على الآخرين، وهو فخر يعززه مقارنة حالتنا بحالتهم (وبالتالي فإن البشر أكثر فخراً بامتلاك البشر الآخرين من امتلاك آلات متطورة).

وفي نهاية الباب الأول (الفصلين الأخيرين) يتكلم هيوم عن مفهوم التعاطف باعتباره يتعدى الذات ليتصل بالآخرين ويتلقى نزعاتهم وعواطفهم عبر التواصل وذلك ليمهد الحديث عن السمعة ويرى هيوم أن الكبرياء أو الخزي في سمعة المرء ينبع في المقام الأول من آراء الآخرين التي يتعاطفون معها، ويعطي لهذا الأمر الدور الأعظم فيقول "كما يجب أن نساعد لهذا المبدأ التناسق العظيم الذي يمكن أن نلاحظه بين أرواح واتجاهات التفكير عند هؤلاء الذين هم من أمة واحدة، ومن المرجح كثيراً أن يكون التعاطف منشأ هذا التشابه أكثر من أي تأثير يكون للتربة والطقس الذين يضلان على حالهما بلا تغيير"<sup>5</sup>. ولذلك يُنظر إلى الآخرين على أنهم حكم جيد على الشخصية. ويخبرنا هيوم عن أن الكبرياء يتأثر بشكل أكبر بآراء الأشخاص الذين نحب شخصيتهم، أو الذين نحترم حكمهم، أو الذين عرفناهم لفترة طويلة<sup>6</sup>.

وفي القسم الأخير، يسعى هيوم إلى تأكيد روايته الشاملة للكبرياء والضعفة من خلال تطبيقه على الحيوانات. باعتبار التشابه بينهما باتباع نموذج علماء التشريح، الذين يختبرون الفرضيات

<sup>5</sup> ديفيد هيوم، رسالة في الطبيعة الإنسانية (ج2 في الأهواء)، المصدر السابق، ص115.

<sup>6</sup> المصدر نفسه من ص116 إلى ص122.

من خلال فحص الهياكل المتماثلة بين البشر والحيوانات، حيث يجادل هيوم بأنه يمكن ملاحظة أنه ينمو عند الحيوانات الفخر والتواضع، وأن الأسباب متشابهة إلى حد كبير، وذلك لكون الحيوانات تكتسب الآليات النفسية المطلوبة لذلك والمتمثلة في ترابط الأفكار، وترابط الانطباعات<sup>7</sup>.

## 2. الحب والكراهية:

هذا التحليل لعاطفتي الزهو والضعفة هو نفسه الذي يطبقه هيوم على عاطفتي الحب والكراهية، مع فرق واحد، وهو أن «النفس» التي يتحتم أن تكون جزءاً من الموضوع الباعث على العاطفة، كما يتحتم أن تكون هدفاً تنصبُّ عليه العاطفة، هي نفس صاحب العاطفة في حالة الزهو أو الضعفة، لكنها تكون نفس شخص آخر في حالة الحب أو الكراهية؛ فأنت تزهو بنفسك أنت وتشعر بضعة نفسك أنت، لا بنفس إنسان سواك، لكنك إذ تحب أو تكره فإنما تصبُّ الحب أو الكراهية على نفس أخرى لا نفسك أنت.

لا بد في حالة الحب أو الكراهية — كما هي الحال في حالة الزهو والضعفة — من موضوع خارجي يثير العاطفة، والموضوعات التي تثير الحب والتقدير كثيرة، منها الفضيلة والمعرفة والفتنة والرأي الصائب وروح الفكاهة الجيدة؛ وأضداد هذه الموضوعات تثير الكراهية والازدراء. وكذلك يثير الحب والتقدير صفات جسدية معينة كالقوة والجمال والرشاقة وما إليها، وأضدادها تثير الكراهية والازدراء.<sup>8</sup>

وهو يشترط أن تكون هذه الموضوعات على صلة بالشخص المحبوب أو المكروه، كما تشترك في أنها تثير اللذة أو الارتياح، أو الألم والقلق.

وفي جملة نماذج عددها ثمانية عن التعدي من شعور إلى آخر يرى هيوم بأنه يمكننا تقسيمها إلى نموذجين أساسيين، ففي النماذج الأربعة الأولى تنشأ فقط استجابة لشيء ممتع أو غير سار يتعلق بشخص ما: فالأشياء المحايدة تماماً (مثل الحجر العادي) والأشياء المتعلقة بأي شخص (كوجود شخص في بيئة غير مألوفة) لن تنتج الكبرياء أو التواضع أو الحب أو الكراهية. بينما في النماذج الأربعة الأخيرة تظهر سهولة الانتقال من شغف إلى آخر كما يرى هيوم، فنحن ننقل بسهولة من الحب والكراهية إلى الكبرياء والتواضع، وعلى سبيل المثال، يمكنني أن أفخر بعلاقتي بشخص آخر يتمتع بصفات محبوبة، بمعنى الانتقال من إعجابي بصفات معينة إلى الإعجاب بالشخص الذي يحملها، وكذلك الحال في الانتقال من صفات أكرهاها إلى كره شخص يحملها<sup>9</sup>.

## 3. الإرادة والأهواء المباشرة.

يمكن تلخيص هذا الباب في فصلين منه، أولهما الفصل الثالث الذي يتحدث عن دوافع الإرادة النافذة، وفيه ينفي هيوم أي دور للعقل (كما يراه العقلانيون) في أي فعل ثم ينفي سيطرته على الأهواء يقول: "ومن أجل إظهار مغالطة هذه الفلسفة برمتها، سأسعى لأبرهن أولاً: أن العقل وحده

<sup>7</sup> المصدر نفسه من ص ص 123، 124، 125.

<sup>8</sup> زكي نجيب محمود، دافيد هيوم فلسفته، هندواي، بد ط، 2017، ص 111.

<sup>9</sup> ويكيبيديا، المرجع السابق.

غير قادر ابدا على أن يكون دافعا لأي فعل من أفعال الإرادة، وثانيا: عدم قدرته إطلاقا على معرضة الهوى تحت إدارة الإرادة"<sup>10</sup>.

وفي الفصل العاشر يعرف الأهواء المباشرة بعد تمييزها عن تلك الغير مباشرة، فيعد أن يتحدث عن وحدة مصدرهما وهو الألم واللذة مثلما أسلفنا. لكن الفرق يكون في أولية الأهواء المباشرة كونها تنشأ تلقائيا عن الخير والشر وذلك "مثل الرغبي والصدود، الغمى والفرح، الرجاء والخوف، وصولا إلى العزم، إذ يجنح الذهن بواسطة غريزة أصلية إلى توحيد ذاته مع الخير وتجنب الشر"، لكن هذه الأهواء غير المباشرة تبقى تعمل مع تلك الغير مباشرة إذ "يبقى ذلك النزوع الذي يوحدنا مع الموضوع أو يفصلنا عنه مستمرا في العمل، لكن مع الاقتران بالأهواء غير المباشرة، التي تثور من علاقة مزدوجة انطباعية وفكرية"

وتكون أهمية هذه الأهواء غير المباشرة أنها تشكل دافعا للأهواء المباشرة وقوة إضافية لها نحو الإقبال أو الاعراض باعتبارها طيبة أو مزعجة وذلك بشكل دائم، فمثلا طقم جميل من الملابس يولد لذة نظرا لجماله، وهذه اللذة بدورها تولد الأهواء المباشرة أو انطباعات الرغبي أو العزم، ثم تأتي عاطفة الزهو باعتبارها هوى غير مباشر، وما يصاحبها من لذة التي ترجع على الهوى المباشر، فتعطي قوة لفرحنا ورغبتنا<sup>11</sup>.

ونسنتج من كل هذا أن العاطفة المباشرة تأخذ دافعيته و مبرراتها من العاطفة في حد ذاتها كعاطفة غير مباشرة، باعتبار أن الإقبال أو الإعراض يتم حسب آثار الفعل التي ترسخت عبر العادة بعيدا عن كل إرادة عقلية.

<sup>10</sup> دافيد هيوم، رسالة في الطبيعة الإنسانية (ج2 في الأهواء)، المصدر السابق، ص215.

<sup>11</sup> المصدر نفسه، ص244.